

نظرا لعدم وجود تنظيم جماهيري يتولى اشراك الشعب ، بطريقة عملية وفعالة ، في تقرير مصيره عند مناقشة الخطوات المقبلة . ولا بد أن يكون لغياب العمل السياسي الجماهيري نصيب مباشر في تضيخ حجم الكارثة عندما وقعت في ٥ يونيو ١٩٦٧ .

أما عن اتجاهات الكاريكاتير المصري ، وفي حدود الالتزام الوطني ، فقد تركز انتاجه في المواضيع السياسية وفي مقدمتها الهجوم على الاستعمار ، باعتباره العدو الأخطر . لهذا كانت رسوم ما قبل النكسة تتجه نحو فضح المؤامرات البريطانية في الجنوب العربي ومناصرة قوى التحرر هناك . وبحكم الضرورة ، كان الهجوم يشمل في بعض مواده عددا من الحكام العرب من أعوان الاستعمار ، بكل ضراوة ، الى الدرجة التي أصبحت فيه هذه الرسوم تشكل حملات مركزة ، لفترات من الوقت ، قد تطول أو تقصر حسب تغير الظروف . وقد زاد من سخونة هذا الصراع ، التحولات التي بدأت تظهر في مصر بعد أن اتجهت نحو النظام غير الرأسمالي في حل مشاكل التنمية ، لأن هذه التحولات تهدد مباشرة لمصالح بعض النظم التقليدية التي تعدت عن التطور الحديث ، الذي يغمر العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الأخيرة ، وخاصة بعد نجاح التجارب الأولى في قيام النظم الاشتراكية في دول أخرى غير الاتحاد السوفييتي . ولو أن الكاريكاتير المصري لم يتعرض بأي قدر من العمق في التعبير عن هذا الاتجاه — أعوان الاستعمار — وفي كسفه وفضحه إلا باعتبارهم قوى متخلفة عن مستوى الصراع الوطني فحسب .

كل هذا يتعلق بالجانب الموضوعي في الإنتاج الكاريكاتيري ، من تحديد الهدف وبذل الجهد الفكري في التصميم والصيغة . فالثابت بالتجربة أن الفكرة الصادرة عن اقتناع ذاتي أقرب الى التوفيق من التي تتولد بدوافع أخرى خارجة عن ارادة الفنان ، سواء بالايحاء أو بدافع المجاملة وارضاء الغير . إذ أن الأولى أصيلة ، أما الثانية فهي استجابة لرغبة بعيدة عن وجدان الرسام .

ولا شك أن المناخ الغريب الذي سبق النكسة — كما سبق أن ذكرنا — كان له تأثير على عملية الاداء التنفيذي للكاريكاتير . وقد يكون من المفيد في هذه المناسبة أن نستعرض مثلا لمجرد القياس والمقارنة حتى يتم التوضيح . والمثال الذي نعرضه هنا يرجع الى منتصف القرن الماضي في فرنسا ، حيث الصراع على أشده بين القوى السياسية حول الحريات . ففي جانب كان يقف الملك « لوي فيليب » ومعه رجال المال والاعمال وكبار ضباط وقيادة الجيش والبوليس ورجال الكنيسة ومحترفو السياسة البرجوازيون ، بينما يقف في الجانب الآخر جميع فئات الشعب ومن معهم من رجال السياسة والصحافة . وكان من الكاريكاتير قد بدأ شبابه في تلك الفترة حيث بدأ يخوض معارك كبيرة وشاملة ، ومن بين الفنانين الرواد في الكاريكاتير كان « أونوريه دوميهيه » يهاجم أعداء الشعب ويدافع عن الحرية وكانت تتمثل في أعماله حول حرية الصحافة أساسا . وفي سبيل هذا تعرض « دوميهيه » لكافة ألوان الاضطهاد ، الى حد اعتقال الرسام وسجنه بدعوى أنه نشر رسما لعامل فرنسي يقف متحفزا للدفاع عن قطعة الأرض التي يقف عليها والمكتوب فوقها « حرية الصحافة » في شكل قوس يبرز من خلفه الملك ورجاله في حالة من الغيظ الشديد ، وكأنهم يتربصون لينتفضوا عليه . ولم يمكن أن يكون اعتقال دوميهيه الى ما لا نهاية ، فالقوى الشعبية كانت تغلي بالثورة ولهذا اطلق سراح دوميهيه . فماذا فعل ؟ خرج دوميهيه لينشر رسمين من روائع انتاجه فكرا وصياغة :

الأول ، رسم مكبسا حديديا من النوع الذي كان وقتها يستخدم في طباعة الرسوم